الفصل التاسع والعشرون

العرب فى أسبانيا (تتمة)

٤٢٨ — ٨٧١ هـ ، ١٠٣٧ — ١٤٦٦ م

ملوك الطوائف — انقساماتهم ومنازعاتهم — توسع سلطان النصارى
الملثمون أو المرابطون — يوسف بن تشفين — موقعة زلاقة — وفاة
يوسف بن تشفين — ولاية ابنه على — وفاته — تدهور سلطان
دولة الملثمين — الموحدون — عبد المؤمن — أبو يعقوب يوسف —
أبو يوسف يعقوب (المنصور) — موقعة الأرك — وفاة يعقوب —
ولاية محمد الناصر — موقعة العقاب — انهيار دولة الموحدين —
ظهور بنى الأحمر — مملكة غرناطة

أدى توتر الأحوال السياسية فى العاصمة إلى أن ينتهز الحكام والأمراء هذه السانحة ويعلنوا استقلالهم ، فوقعت ملقا والجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة فى أيدى بنى حمود الذين لقبوا أنفسهم بأمير المؤمنين ، وطفقوا يحكمون هذه البلاد حتى اغتصبها منهم ملك غرناطة سنة ١٠٥٧ م ، ثم آلت فيما بعد إلى زعيم البربر « الزاوى » ، وظل الحكم وراثياً فى أسرته حتى عام ١٠٩٠ م ، كما استولى على على أشبيلية والمناطق الغربية بنو عباد ، ويعتبر مؤسس هذه الأسرة قاضى قضاة أشبيلية أبو القاسم محمد الملقب « بابن عباد » ، وكان آخرها المعتمد الذى أقصاه يوسف بن تشفين إلى أفريقيا ؛ وكانت طليطلة فى قبضة بنى ذنون الذين ازدهرت المدينة فى عهدهم ، وكان آخر تلك الأسرة « القادر » الذى سلم المدينة إلى ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م . وكان بنو هود الذين ينتسبون إلى أحد قواد عبد الرحمن الثالث قد استقلوا بسرقسطة حتى سنة ١١١٨ م عندما استولى عليها المسيحيون بقيادة رامير ؛ كذلك استقل عدة أمراء آخرون ببطليوس وبلنسية ومرسية

بنو هود ١٠٨٥ م

مجاهد العامرى

والمرية ؛ واستقل مجاهد بن عبد الله العامرى[1] الملقب بأبى الجيوش بدانية وجزائر البليار ، وكان العامرى جنديا شجاعاً و بحاراً خبيراً ، كما كان لديه أسطول كبير على أتم استعداد لغزو سواحل فرنسا و إيطاليا ، وطالما هو كان على قيد الحياة لم تتجرأ السفن المسيحية على الإبحار فى بحر الشام ، وكان هؤلاء الولاة يسمون « ملوك الطوائف » ، وكانوا جميعهم يشجعون العلم ويكرمون العلماء ، ويتنافسون فى تشجيع الأدب والفنون ، ويقول مؤرخ عربى : « لما انفرط عقد تلك الدولة وتقسمت إلى ملوك صغار لم يخسر العلم والأدب بانقراض بنى أمية ، إنما كسب بهذا الانقسام ربحا كبيراً » .

انقسام ملوك الطوائف

لو أن هؤلاء الملوك وحدوا صفوفهم ، أو لو كانت لديهم غاية واحدة لاستطاعوا تكوين جبهة قوية لصد غارات مسيحيى أسبانيا التى أخذت تشتد وطأتها فى ذلك الحين ، غير أن انقسامهم وحسدهم مهد الطريق لانقراضهم . وقد بلغ بالبعض ضعف النفس وخور العزيمة أن اتحد مع المسيحيين ضد منافسيه المسلمين .

فرديناند الأول

وفى سنة ١٠٥٥ انقض ملك قشتالة وليون فرديناند الأول على المسلمين المتنازعين بجميع قواته ، وأقصاهم عن كثير من المواضع المهمة . وقد أنقذ المعتضد ملك أشبيلية ولايته بدفع جزية إلى أمير ليون ، وتوفى سنة ١٠٦٩ م تاركا الملك لابنه المعتمد الذى استولى فى سنة ١٠٧٥ على قرطبة ، ولم يلبث أن أخضع طليطلة والمنطقة الواقعة من وادى الحجارة إلى وادى أنة . ولما توفى فرديناند الأول سنة ١٠٦٥ خلفه ابنه الفونسو السادس فى عرش قشتالة ، وكان طموح النفس لا يهاب شيئاً فأقصى إخوانه عن مملكته ، وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لليون وقشتالة وجليقية ونافارا ولقب بالإمبراطور ، ولم يرض بالجزية التى كان يدفعها له مواليه العرب عن يد وهم صاغرون ، بل وطد العزم على إخضاع شبه الجزيرة برمتها وجعلها تحت سيادته المباشرة ، وكان جل اعتماده على جيشه العظيم الذى كان

(١) كان العامرى مولى الحاجب المنصور .

ينضوى تحت لوائه محاربون أشداء من سائر أنحاء أوربا ، فأعلن استعداده إلى منازلة الأعداء « بشياطين وملائكة السماء » . وفى سنة ١٠٨٥ م سلم إليه القادر آخر ملوك ذى النون مدينة « طليطلة » المشهورة ، فغدا كبرياؤه بذلك التسليم لا يعرف حداً . واستشعرت غرناطة و بطليوس وأشبيلية ، والمدن القليلة الأخرى التى كانت فى أيدى المسلمين المصير الذى خبأته لها الأقدار ، وأخذت تتلفت ذات اليمين وذات اليسار تطلب العون على هذا الخطر الداهم ، ومع ذلك كانت الخلافات الداخلية والمنازعات المحلية تجعل من المستحيل توحيد الصفوف ضد العدو المشترك ، فحولوا أنظارهم إلى الخارج .

إقامة دولة الملثمين

و بينما كانت الإمبراطورية الإسلامية فى أسبانيا تتردى فى هاوية الانحلال والتفكك ، قامت دولة جديدة فى أفريقيا الغربية باسم المرابطين ؛ وقصة نشأتها أن عدة قبائل من الصحراء الكبرى والملقبين بالملثمين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً ، فحرضهم الزعماء الدينيون الملقبون بالمرابطين على الجهاد فى سبيل الله ، فانتصروا لهم وأسسوا مملكتهم الجديدة التى امتدت رقعتها من سنغامبيا إلى الجزائر ، وسمى ملوكهم بالمرابطين أو الملثمين .

يوسف بن تشفين أمير المسلمين

ولما استولى على تلك البلاد يوسف بن تشفين الذى أنعم عليه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وجه إليه ملوك الأندلس أبصارهم واستنجدوا به فأجابهم إلى طلبهم ، وعبر البحر إلى أسبانيا فى تشرين الأول سنة ١٠٨٦ م ، فانضوى تحت لوائه بالقرب من أشبيلية قوات المعتمد وجنود زعماء الأندلس الآخرين ، وزحفوا على بطليوس ، وأتى الفونسو[1] فنزل موضعاً يقال له الزلاقة على بعد أربعة فراسخ من جنوب بطليوس ، وكان جيش العرب لا يزيد على العشرين ألف مقاتل ، بينما كان عدد جيش الفرنج بقيادة الفونسو زهاء الستين ألفاً ، فدارت معركة دموية هائلة بينهم يوم الجمعة ٢٣ تشرين الأول ، وانحنى المسلمون فيهم ووضعوا السيف

(١) يسميه العرب الأدفونش (العرب)

فى رقابهم ، فلم يفلت منهم أحد غير ألفونسو فى ثلثمائة فارس ، ومنذ تلك الموقعة جنحت مملكة ليون المسيحية إلى السلم ردحاً من الزمن . ولم يلبث يوسف بن تشفين أن رجع إلى أفريقية ، ولكنه عاد فى السنة التالية إلى الأندلس وأقصى ملوكها واستولى على إماراتهم وضمها إلى مملكة المرابطين ؛ وبذلك أصبحت أندلوسيا إلى حدود نهر تاجة فى قبضة سلطان صاحب المغرب . وقد أخذ الفقهاء الذين أعانوا المرابطين على الاستيلاء على الملك يتمتعون وقتئذ بنفوذ واسع ؛ ويقول دوزى : « إن المرء ليجد نفسه فى تلك الأثناء أمام سلطة دينية قوية على رأسها فقهاء المسلمين فى عهد حكم الملثمين ؛ وقد أدى بهم ضيق أفق التفكير إلى تحريم كتاب الغزالى المسمى بإحياء العلوم » .

وبينما كان يوسف على قيد الحياة كان المسيحيون يخشون سطوته ، ولكنه توفى سنة ١١٠٦ م وخلفه ابنه على الملقب بأبى الحسن ، وقد اقتفى آثار أبيه وإن كان قد عجز عن اللحاق به فى عدة أمور ، ولكنه مع ذلك هزم القبائل المسيحية فى عدة مواقع ، واستولى منهم على تلافيرا ومدريد ووادى الحجارة وعدة حصون ومدن مهمة أخرى ، بينما استولى قائده « سير بن أبى بكر » على مدن شنتريم وبطليوس والبرتغال ولشبونة ، غير أن المسلمين فقدوا فى الوقت نفسه سرقسطة وقلعة أيوب وبعض المدن المهمة الأخرى فيما وراء نهر تاجه ، تلك المدن التى استولى عليها جيوش المسيحيين المؤلفة من الأراغونيين والكتالونيين والفرنج فيما وراء جبال البرنيه ؛ وبينما كان المرابطون منهمكين على هذا النحو فى بلاد الأندلس تطورت الأحوال فى أفريقية وأصيب ملكهم بكارثة عظيمة .

الموحدون سنة ١١٢٠ م

وفى سنة ٥١٤ هـ ظهر رجل يدعى محمد الملقب بابن تومرت من أهالى السوس من بلاد المغرب بين سكان البربر القاطنين سلسلة الجبال الممتدة فى المغرب الأقصى ، وينتسب محمد المذكور إلى أسرة عربية ، وكان قد رحل فى شبابه إلى بلاد الشرق فى طلب العلم ، فقرأ الفلسفة والشرع على عدة علماء كالغزالى

محمد بن تومرت المهدى

وأبى بكر الطرطوشى وغيرهم ، وعند عودته إلى بلده سخط على انحلال الأخلاق المتفشية فى جميع الطبقات ، إغراق العامة فى تقديس الأضرحة ، ومن هذا بدأ يعظ أهل جبال الأطلس المتوحشين ويحضهم على التمسك بأهداب الفضيلة كما أعلن بأنه هو المهدى المنتظر ، والتف حوله عدد عظيم من الأتباع ؛ وانتخب ابن تومرت نائباً عنه شاباً اسمه « عبد المؤمن » ابن أحد التجار الأغنياء ، وسمى أتباعه وتلاميذه بالموحدين ، وأخذت تقوى شوكتهم تدريجياً فلم ينقض طويل وقت حتى أسسوا مملكة فسيحة الأرجاء على حساب دولة المرابطين ، وطالما كان على ابن تشفين على قيد الحياة ، كان سلطانهم مقتصراً على مراكزهم الأصلية ، ولكنه لما توفى سنة ١١٤٣ م وخلفه ابنه لم يستطع الحاكم الجديد صد الموحدين الذين فتكوا به سنة ١١٤٥ م ، وما هى إلا برهة حتى انتقلت مراكش إلى عبد المؤمن ؛ وقد انتهز مسيحيو أسبانيا فرصة الكفاح بين المرابطين والموحدين وانقضوا على الولايات الإسلامية فى أسبانيا يثخنون فى أهلها وينكلون بالمسلمين شر تنكيل ، ونادى الفونسو السابع بنفسه إمبراطوراً ، وأعمل السيف والنار فى قرطبة وأشبيلية وكرمونه ، ونهب وأحرق مدينة شريش واكتسح البلاد حتى وادى عاش ، ولم تكد تنقضى بعد ذلك خمس سنوات حتى أعمل أيدى التخريب فى مناطق جيان وباجه وأبده وأندوجار ، فاستنجد مسلمو الأندلس ثانية بإخوانهم فى أفريقية . وفى سنة ٥٤١ هـ أرسل عبد المؤمن جيشاً وأسطولا لمساعدتهم[1] ، فهزموا المسيحيين وأخضعوا الملوك المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بعدة ولايات ؛ وكادوا أن يخضعوا بلاد الأندلس برمتها إلى سلطانه ، وبعد أربع سنوات قسم الإمبراطورية إلى ولايات ، وعين أولاده حكاماً عليها[2] . وفى سنة ٥٥٤ هـ استولى من الفرنج على المهدية وتلقب بلقب أمير المؤمنين ، وباستيلائه على هذه

(١) ابن الأثير .

(٢) مثال ذلك أن أبا محمد عبد الله الذى خلفه كان متولياً مقاليد الملك فى بجاية وملحقاتها وأبا الحسن على فى فاس ، وأبا سعيد فى سبتة والجزيرة الخضراء .

المدينة المهمة أصبح سيد أفريقية الشمالية دون منازع من صحارى برقة إلى المحيط الأتلنطيق غرباً .

وفاة عبد المؤمن

وفى عام ١١٦٣ م توفى عبد المؤمن بعد أن بقى فى الحكم ٣٣ سنة ، وكان أبيض البشرة أزرق العينين حكيما عادلا شجاعاً نشيطاً محباً للعلم ، فازدهرت العلوم فى عهده فى سائر أنحاء الإمبراطورية وبخاصة فى أسبانيا ، وقد أسس عدة كليات عامة ومدارس فى مراكش . وبعد وفاته اعتلى ابنه « محمد » عرش الخلافة ، ولكن الأمراء ورجال الدولة عزلوه لضعفه وكسله ، وبايعوا أخاه أبا يعقوب يوسف ، وكان شهماً كريماً فاستبشر الشعب بولايته خيراً وأملوا على يديه نجاحاً وسعادة ، وزار أسبانيا عدة مرات واحتل عدة مدن من بينها ترّا كونة وشنترين ؛ وتوفى فى سنة ١١٨٤ م فخلفه ابنه يعقوب المشهور الذى بلغت إمبراطورية الموحدين فى عهده ذروة مجدها وفخامتها ، ويوصف بأنه كان حاكما عاقلا مدبراً مثقفاً ، وقد دارت بينه وبين الفونسو التاسع ملك قشتالة معارك شديدة انتهت بعقد صلح بينهما لمدة خمس سنوات ، ولكن ما كادت تنتهى هذه المدة حتى غزا الجيش القشتالى — الذى تضخم بانضواء مسيحيي ما وراء جبال البرنيه تحت لوائه — بلاد الأندلس « وأعملوا النهب والقتل وارتكبوا أروع ضروب السفك والتخريب » ، فلما علم يعقوب بالخبر عبر البحر ، وكان المسيحيون من جهتهم قد جمعوا جيشاً لجباً «من جميع أنحاء العالم المسيحى» لمقاتلة ملك الموحدين بموضع يعرف (بالأرك) على مقربة من بطليوس ، فهاجمهم يعقوب وألحق بهم خسائر فادحة ؛ ويقال إن عدد قتلى المسيحيين بلغ زهاء ١٤٦٫٠٠٠ علاوة على الأسرى الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفاً ، ففرت فلول الجيوش المسيحية إلى كالاترافا حيث اعتصموا بها ، غير أن المسلمين استولوا عليها وأمعنوا فى تخريبها ، ففر الفونسو إلى طليطلة حيث التف حوله جيش آخر سار به لمقاومة ملك الموحدين ، ولكنه منى فى هذه المرة أيضاً بهزيمة شديدة ، واستولى المسلمون ثانية على كالاترافا

ووادى الحجارة ومدريد وسلمنقة وعدة مدن وحصون أخرى فى أسبانيا والبرتغال كانت قد سقطت فى أيدى المسيحيين من قبل . وفى تشرين الثانى سنة ١١٩٦ حاصر يعقوب مدينة طليطلة حصاراً شديداً حتى ضاق أهلها ذرعاً بتحمل مصاعب الحصار ، « فخرجت أم الفونسو مع زوجاته و بناته وتوسلوا بيعقوب وهن يذرفن الدموع أن يبقى على المدينة ، فنالت توسلاتهن من قلبه ومست موضع الرحمة والإشفاق من نفسه ، فلم يجبهن إلى طلبهن فحسب ، بل أغدق عليهن العطايا والهدايا النفيسة أيضاً » . و بعد أن أنقذ مدريد التى كان يحاصرها أهل أراغونه الذين ولوا الأدبار حالما اقترب منهم ، عاد إلى أشبيلية حيث قضى سنة يتفاوض مع سفراء الأمراء المسيحيين « الذين وفدوا عليه يطلبون الصلح »[1] فأجابهم إلى ما يريدون ، وقام بعدة إصلاحات فى إدارة حكومة الأندلس . وفى نهاية سنة ١١٩٧ عاد إلى أفريقية حيث ظل باقيا فيها إلى أن وافته منيته سنة ١١٩٩م وكان يعقوب معاصراً لصلاح الدين الذى كان قد أوفد إليه سفيره ابن أخى الأمير أسامة يستنجده على الصليبيين ، وقال فيه أحد المؤرخين « إنه كان مكرماً للعلماء ويقربهم وهم أهل خدمته وخاصته ، وكان ديناً قيما للحدود فى الخاص والعام » ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ، ورتب الحاميات فى سائر البلاد ، كما أصلح أحوال الدولة وشؤونها ، وأسس عدة مستشفيات (و بمارستانات) فى كل مدينة لمعالجة المرضى مجاناً ؛ وقد نبغ فى عهده الطبيب المشهور ابن زهر وابن باجة ، والفيلسوف العالم « ابن رشد » الذى كان متوليا منصب القضاء فى قرطبة . وكان « يعقوب » كالرشيد والمأمون وكخلفاء أسبانيا الأمويين يهتم اهتماما عظيما بالرى وتوفير أسباب الراحة والأمن للتجار والمسافرين ، كما جمل المدن بالأبنية الفخمة ، وهو الذى بنى المرصد المشهور فى أشبيلية ، وعرف بعد موقعة الأرك باسم « كيرالدة » .

---

(١) ابن خلدون .

محمد الناصر لدين الله

ولما توفى يعقوب المنصور خلفه ابنه محمد الذى لقب بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وكان يختلف عن أبيه فى المقدرة والأخلاق ، إذ كان محباً للهو عاطلا من كل مقدرة ، وفى الواقع كان المسبب الحقيقى لخراب دولة الموحدين وضياع دولة العرب فى أسبانيا ، فكانت وفاة يعقوب المنصور إيذانا للأمراء المسيحيين باستئناف الهجوم على بلاد الأندلس ؛ وما لبث ألفونسو التاسع ملك قشتالة (ابن أتفونش) أن غمر الأراضى الواقعة حول أشبيلية وقرطبة بجنوده وأعمل فيها النار والسيف ولأجل أن يثأر الناصر لرعيته عبر البحر من سبتة بجيش لجب ، ولم يطل عليه الزمن فى أشبيلية حتى أعدم يوسف بن قادس حاكم قلعة الرباح عقابا له على تسليمها إلى ألفونسو ، ولم يثر تنفيذ الإعدام فى هذا الحاكم الذى كان يحترمه جميع مسلمى الأندلس سخط الأهالى فحسب ، بل أدى إلى انتشار الخلل فى صفوف جنودهم فى ساحة الوغى ، وقد أثارت أخبار الناصر واستعداده غضب الشعوب المسيحية . والآن بعد أن أقصى صلاح الدين جموع الصليبيين من آسيا ، وجه هؤلاء المغامرون وجوههم شطر أسبانيا ، فأعلن الأناسونت الثالث حربا صليبية أخرى على المسلمين فى الأندلس ، وأخذ رودركيو أسقف طليطلة الذى سافر إلى روما مستنجداً بالبابا يدعو يوميا إلى حرب مقدسة على المسلمين . فما هى إلا برهة حتى التحق بملوك قشتالة ، وأراغون ، والبرتغال ، وليون ، ونافارا جموع الصليبيين الذين زحفوا من فرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا على الموحدين ، وتقابل الجيشان فى الموضع المعروف بالعقاب ، ويسميه الأسبانيون « لاناقاس دى طولوسو » ، وفى أول معركة انهزم الأندلسيون وسلم البعض الآخر إلى العدو ؛ أما الجنود الإفريقية فقد حاربوا بشجاعة وبطولة عظيمتين ، ولكن العدو تغلب عليهم بكثرته وأفنامهم عن آخرهم ، ولم يترك الناصر الميدان إلا بعد إلحاح شديد ، فغادره إلى مراكش حيث توفى سنة ١٢١٤ م من الحزن والكمد ؛ فتولى بعده ابنه يوسف ولقب بالمستنصر بالله ، ولم يكن قد ناهز بعد السادسة عشرة من عمره ،

موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م

يوسف المستنصر بالله

وبطبيعة الحال استولى على زمام الحكم شيوخ دولة الموحدين ، وتوفى الخليفة الجديد سنة ١٢٢٣ فاعتلى بعده العرش سيدى أبو محمود عبد الواحد ، وفى عهده استقل الأمراء الموحدون والولاة فى أسبانيا ، وعلى أثر مقتله فى السنة التالية انتخب الموحدون ابن المنصور المسمى بأبى محمد ولقب بالعادل . وفى سنة ١٢٢٧ م خرج عليه الثائرون وقتلوه فانتخب بعده أخوه إدريس حاكم أشبيلية ، وأعلن نفسه خليفة ولقب بالمأمون ؛ ومع ذلك فقد فلتت من سلطته مرسية ، والقسم الأعظم من الأندلس الشرقية برئاسة ابن هود . وفى سنة ١٢٢٨ عاد المأمون إلى أفريقية مع عدد من الجنود المسيحيين الذين جهزه بهم ملك قشتالة ، وكان سفره إيذانا بنشوب ثورة فى أشبيلية انتهت بخلع سلطة الموحدين والاعتراف بسلطان ابن هود الذى أصبح سيد القسم الأعظم من الأندلس ، وفتك الثوار بالأمراء الموحدين ، فقتلوا البعض وأقصوا البعض الآخر من البلاد ؛ غير أن ابن هود لم يكن العربى الأسبانى الوحيد الذى أعلن نفسه ملكا على أنقاض دولة الموحدين ، إذ أن الزيان (أبا جميل) نادى بنفسه ملكا على بلنسية ، بينما استولى محمد ابن يوسف المعروف بالأحمر على مدينة أرغونة وقلاعها ، ولم يبلغ أحد من هؤلاء الولاة الطموحين إلى العرش ما بلغه ابن الأحمر من النجاح ؛ فأسس مملكة أصبحت فى خلال المائتين والخمسين سنة التالية مركزاً عظيما لمدنية العرب . ويصف لنا ابن خلدون الذى كان يعيش فى غرناطة فى بلاط أحد أخلاف ابن الأحمر سرعة نهوض هذا الحاكم المغامر ، فيقول إن أسلافه كانوا يعيشون فى أسبانيا باسم بنى نصر ، وكانوا فى عهد الخلفاء الأمويين يتقلدون مناصب خطيرة فى الجند ، وكان محمد المعروف بالشيخ فى ذلك العهد رئيس الأسرة ، واكتسب بمتانة أخلاقه ومقدرته نفوذاً عظيما على بنى جلدته ؛ فلما طفق سلطان الموحدين ينهار وضعفت شوكتهم وسلم الزعماء حصونهم إلى العدو لقب ابن الأحمر نفسه بالسلطان[1] .

أبو محمد العادل

محمد بن الأحمر

(١) يقول ابن خلدون إن رؤساء الإقطاعيات كانوا يسمون بأصحاب المقل .

« وأصبحت بلاد الأندلس برمتها فى تلك الأثناء فريسة للحروب الداخلية » . وانتهز أهل قسطيلة فرصة انقسام الزعماء المسلمين ، وحرضوا الواحد على الآخر ، ثم قتلوا الباقين . ولكن ابن الأحمر تحالف فى مستهل حكمه مع ملك قسطيلة ليضمن مساعدته على ابن هود الذى سلم للمسيحيين من جهته ثلاثين قلعة ليساعدوه على ابن الأحمر ، وهكذا بدأ ذلك النزاع على هذا النحو المشين . وفى سنة ١٢٣٦ م استولى القشتاليون على قرطبة ، و بعد ذلك بسنتين سقطت بلنسية فى أيديهم ، وفى سنة ١٢٣٩ احتلوا عسيرة ، وفى سنة ١٢٤٦ استولوا على مرسية وأخيرا أخرجوا الزيان ونفوه إلى تونس ، وفى سنة ١٢٤٨ م حاصروا مدينة أشبيلية حصاراً شديداً دام خمسة عشر شهراً حتى أذعنت المدينة إلى التسليم .

القشتاليون يستولون على قرطبة

و بينما كان القشتاليون يفتكون بمنافسيهم استولى ابن الأحمر على جريش وجيان وغرناطة ومالقة والمرية ، و بمهارته وحسن تدبيره وحد سلطته فى تلك المملكة الصغيرة التى استطاعت أن تقاوم الأعاصير حولها زهاء ٢٠٠ سنة ، وأن تصمد للقوات المسيحية الأسبانية والبرتغالية التى كانت تأتيها النجدات الصليبية من حين لآخر من وراء البرنيه ، ولكن هذا النزاع كان منذ البدء غير متكافئ ، وأصبح انهيار دولة بنى الأحمر موكولاً للزمن ، كما أنها برغم ذلك كافحت كفاحا مستميتاً حتى النهاية .

الغالب بالله

لما استولى ابن الأحمر على غرناطة جعلها قاعدة ملكه ، ولقب « بالغالب بالله » ، وشيد لنفسه هنالك القلعة المشهورة المسماة قصر الحمراء الذى عمل أخلافه على توسيعها وتجميلها .

وكانت سياسة ابن الأحمر مبنية على الاتصال الوثيق بملوك بنى مرين فى المغرب الأقصى ، وتوطيداً لتلك الصداقة جعل اسمهم مقرونا باسمه فى خطبة الجمعة فى كافة أنحاء بلاده . وفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) نشبت حرب بينه و بين حليفه السابق ملك قشتالة المسيحى الذى غزا مملكة غرناطة ، ولكنه هزم

هزيمة شديدة . وقصى إلى خارج الحدود ، وتوفى ابن الأحمر فى سنة ١٢٧٢ ؛ فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد ، وكان عالما فقيهاً محباً للعلوم ؛ فلم يلبث حاكم قشتالة أن غزا تلك المملكة ثانية فى سنة ١٢٧٤ بقيادة قائد يسميه العرب دون نونو ، غير أن محمداً بمساعدة ملك بنى مرين هزمهم فى معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالى نفسه . وبعد إحدى عشرة سنة نشبت حرب أخرى بين ملك قشتالة والمسلمين وقد دامت هذه المرة حتى نهاية تلك المائة سنة ، ولكن محموداً انتصر فى تلك المعارك انتصاراً لا يقل روعة عن انتصاره الأول ، وتوفى فى سنة ١٣٠٢ م بعد أن حكم ٣٠ سنة حكما عادلا تمتعت فيها البلاد بالرغد والرفاهية . وخلفه ابنه ولقب بنفس الاسم فحكم البلاد بالحكمة والمهارة الفائقتين حتى سنة ١٣٠٧ م عند ما خرج عليه أخوه ناصر وعزله عن الحكم ، غير أن الملك الجديد كان سيىء الطالع ، إذ ما كاد يعتلى العرش حتى غزا بلاده ملكا قشتالة وأراغون ، ولم ينقذ البلاد منهما إلا بإذعانه إلى دفع جزية سنوية لهما . وفى سنة ١٣١٤ م اضطر إلى التنازل عن العرش لإسمعيل أحد أحفاد إسمعيل أخى ابن الأحمر مؤسس تلك الأسرة . وفى سنة ١٣١٦ م انتزع منه أمير قشتالة عدة مدن ، وإن كان قد ألحق بها بعد ثلاث سنوات هزيمة خالدة فى الفيرا . وفى سنة ١٣١٩ م بعث ملك قشتالة جيشاً ضخما بقيادة ابنه « بدرو » لإخضاع غرناطة نهائيا ، وكان يصحب تلك الحملة ٢٥ أميراً من بينهم أمير انكلترا ، الذى التحق بالجيش القشتالى على رأس قوة انكليزية كبيرة ، فسقط جميع الأمراء مجندلين فى حومة الوغى ، ومن ضمنهم قائد الحملة « بدرو » .

اغتيال إسمعيل

ولما اغتيل إسمعيل سنة ١٣٢٥ م اعتلى العرش ابنه أبو عبد الله محمد فأظهر عزما وشدة فى تصريف الأمور ، وفى سنة ١٣٣٣ م استخلص جبل طارق من المسيحيين الذين كانوا قد استولوا عليه . وبينما كان السلطان محمد عائداً من إحدى الحصون هجمت عليه جماعة من المتآمرين كانوا مختبئين وراء إحدى

أبو الحجاج يوسف

الصخور وفتكوا به ؛ فخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف وهو من أذكى وأشهر ملوك بنى ناصر ، وكان عهده عهد أمن ورخاء ، وكان كأسلافه محباً للعلوم مشجعاً للعلم مكرما للعلماء ، ولكن حكمه لم يطل لسوء طالع المسلمين فى الأندلس ، إذ فى سنة ١٣٥٤ طعنه مجنون بخنجر طعنة نجلاء عند ما كان فى مسجد القصر يؤدى فريضة الصلاة فتوفى على أثرها . وولى من بعده ابنه محمد الملقب « بالغنى بالله » وكان كأبيه مثقفاً عالما مكرما للعلماء ، وكان وزيره ابن الخطيب المشهور الملقب بلسان الدين الذى دون تاريخ أسرة بنى ناصر . وبينما كان « الغنى بالله » متغيباً عن العاصمة اغتصب أخوه إسميل منه الملك ، فغادر الغنى أفريقيا واستوطن مدينة فاس . غير أن حكم إسميل لم تطل مدته ، إذ قتل فى أثناء الثورة التى قام بها أبو سعيد الملقب أيضاً « بأبى عبد الله محمد » ، وقد فتك به ملك قشتالة بعد سنتين واستولى على ثروته . وبموت أبى سعيد عاد « الغنى بالله » إلى غرناطة واستقبله شعبه المتقلب الأهواء استقبالا حماسياً ؛ فقضى بقية حكمه دون أدنى مقاومة ، وساد السلام فى ربوع البلاد بفضل المهارة التى عالج بها الموقف مع ملوك قشتالة ، فتمتعت البلاد بظرف ساعدها على التقدم والثراء ، وانتعشت فى عهده الفنون والصناعة وجلب التجار إليها من أقاصى الشرق وموانئ البحر الأبيض المتوسط مختلف السلع والبضائع ، وخصبت البلاد بفضل مشاريع الرى الجديدة . وفى سنة ١٣٩١م توفى الغنى فحزن الشعب لوفاته . وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذى لم يكن حكمه سعيداً كحكم والده ، وإن كان ميالا إلى احتذاء حذو أبيه فى الاحتفاظ بالعلائق الودية مع ملوك قشتالة . غير أن الرأى العام كان ميالا فى ذلك الحين إلى محاربة المسيحيين فوضح للأمر الواقع ، ولكنه لم ينل نجاحا يذكر ، إذ لم يلبث حماس أهل غرناطة أن خمد فاستطاع يوسف بعد حين أن يعقد معاهدة صلح مع الملك الشاب هنرى الثالث بشروط شريفة . وكان يوسف الثانى قبل وفاته قد أوصى بالملك لابنه الأكبر المسمى أيضا يوسف والمشهور بحدة الذكاء ومتانة الخلق ،

محمد الغنى بالله

وفاة الغنى

ولكن الابن الأصغر واسمه محمود على أثر وفاة أبيه فى سنة ١٣٩٦ استولى على مقاليد الحكم واستأثر بالملك دون أخيه الذى سجنه فى قلعة سارو برينا .

وفى سنة ١٤٠٥ غزا جيش قشتالة منطقة غرناطة ، ولكن يوسف بدلا من أن يلتجئ إلى ملك قشتالة أخذ على عاتقه إنزال العقاب بالمعتدين ، فدارت معركة بينه وبينهم كان فيها الحرب سجالا . وبموت محمود السادس سنة ١٤٠٨ أخرج سيدى يوسف من السجن وأعلن ملكا على البلاد ، وأول عمل قام به هو الحصول من أمير قشتالة على تمديد عقد الهدنة ، وبعد سنتين نشب حرب غير حاسم بين الشعبين ، وأعقب ذلك هدنة أخرى انتهت بعقد صلح دام طيلة أيام حكم يوسف ، وكان قد نودى فى تلك الأثناء بالطفل ابن هنرى الثالث ملكا على قشتالة تحت وصية أمه التى كانت تقدر الملك العربى حق التقدير ، وكانت العلائق بين الاثنين على غاية الود والصفاء ، ولما كانا يتبادلان فى كل سنة أثمن الهدايا ، ويتراسلان بكتب ودية للغاية . ويقال إن فرسان قشتالة وأراغونة الذين كانوا يسخطون على حكومتهم راحوا يلتجئون إلى بلاط يوسف ، وكثير منهم كان يفد على غرناطة لحسم بعض المشاكل التى لها مساس بالشرف ، وكانوا غالباً ما يتقدمون إليه للبت فى مسائلهم ، فكان الملك العربى يتدخل أحياناً فى توقيف المبارزة ويسوى الخلاف بين الطرفين المتنازعين ، فأحبه الأجانب والوطنيون على حد سواء لعطفه وعدله وكرمه وفضله ، وساد فى عهده الوئام بين القشتاليين والعرب ، فأقدمت غرناطة على إصلاح ما فسد ، وأخذت تتمتع بنعمة السلام الذى لم تعرفه منذ أمد طويل .

وفاة الملك يوسف الثالث

توفى هذا الملك الطيب بعد حكم خمس عشرة سنة ، وحزن الشعب عليه حزنا عميقاً ، وبموته انتهت أيام غرناطة السعيدة . فخلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر ، وكان متكبراً حاد الطبع فكرهه جميع أهل غرناطة ؛ ويقال إنه أبطل الأعياد العامة والبرجاس الذى كان يتعشقه أهل غرناطة ، وأصدر عدة أنظمة لا تلائم

مزاج الشعب المرح ، فثاروا عليه وأقصوه عن العاصمة ، ولكنه لم يلبث أن استدعى إليها ثانية ؛ غير أن الشعب غضب عليه وطرده من العاصمة ، فاستولى على أعنة الحكم أحد الأشراف واسمه يوسف بمساعدة جون الثانى[1] ملك قشتالة ، غير أنه لم يلبث أن توفى بعد بضعة أشهر ، فاسترد محمد السابع ملكه ثانية . وفى سنة ١٤٣٣ غزا ملك قشتالة غرناطة ، ومع أنه أصيب بهزيمة رائعة عند أسوار أرشيدونة إلا أن جيشه برغم ذلك أعمل معاول التخريب فى قسم كبير من منطقة وادى عاش وسهول غرناطة . وفى سنة ١٤٤٤ أقصى نهائياً محمد عن الحكم من قبل ابن أخيه ابن الأحنف ، وسمى كذلك بمحمد الذى كسب قلوب الشعب بإنعاماته فاعترفوا به ملكا عليهم ؛ غير أن قسما كبيراً من الأشراف قصدوا إلى قشتالة وبايعوا « أسداً » الملقب بابن إسماعيل ابن عم ابن الأحنف الذى كان قد التجأ إلى جون الثانى ، فعاد الملك الجديد على رأس قوة من القشتاليين والأمراء الموتورين وغزا غرناطة . وفى خلال الخمس سنوات التالية نشب بين العرب حروب داخلية مروعة ، فانهزم ابن الأحنف نهائياً فى سنة ١٤٥٤ م ، ونادى ابن إسماعيل بنفسه ملكا على مملكة بنى الأحمر ، وكان أول ما قام به هو إرسال السفراء والهدايا إلى هنرى الرابع ملك قشتالة لتجديد معاهدة الصلح ؛ غير أن القشتاليين مع ذلك رفضوا إجابة طلبه وغزوا غرناطة ، فدامت الحرب سبع سنوات ، وأمعنوا فى تخريب المدينة وأحرقوا بيوت المسلمين ، وخربوا المزارع وهدموا القصور الجميلة وجداول الرى . وفى هذا النزاع كانت كفة المسيحيين هى الراجحة ، إذ لو اكتسب العرب الموقعة لما كان ذلك النصر يغنيهم فتيلا ، لأن مراكز القشتاليين الآهلة بالسكان كانت بعيدة عن متناولهم ، وأصبحت غرناطة الآن محصورة بين البحر وجبال الفيرا وسلسلة جبال البُشرات ، فاستولى جيش قشتالة عنوة على أرشيدونة وجبل طارق ، فأضعفت هذه المصائب عزيمة

(١) اعترف هذا الغاصب بسلطان ملك قشتالة .

ابن إسماعيل ، ورأى أن الحروب لو استمرت على هذا المنوال لتقوضت دعائم ملكه ، فضحى بكل مرتخص وغال فى سبيل الصلح ، واعترف بسلطان هنرى الرابع وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وأبرمت هذه المعاهدة شخصياً فى اجتماع حضره الملكان على مقربة من غرناطة ، ودام الصلح الذى عقد بين الاثنين حتى توفى ابن إسماعيل سنة ١٤٦٦ .